الفصل السادس

الإمبراطورية الهولندية العالمية

الألماس، والدِّمَقس، وكافة «المذاهب الهجينة في العالم المسيحي»

وهكذا، ارتقت أمستردام بواسطة العناية الإلهية إلى ذروة الازدهار والعظمة. ... يقف العالم برمته مشدوهاً أمام كنوزها، حيث قدم إليها العالم من جهاته الأربع لمشاهدتها.

ـ كاتب هولندي، سنة ١٦٦٢

المدينة غير مقسمة إلى أبرشيات كما هي الحال عندنا، لكن كل شخص يذهب إلى الكنيسة التي يريد، هناك ثماني أو تسع كنائس عامة فقط إلى جانب الكنائس الإنجليزية والفرنسية واللوثرية والأناباتيستية المعمودية إلخ، بالإضافة إلى عدد من الكُنُس اليهودية... توجد آلات الأرغن الموسيقية في بعضها، ولكن لا يتم العزف عليها إلا بعد مغادرة الناس للكنائس بحيث يبدو وكأن القيمين على الكنائس يريدون من المصلين الخروج منها...لا يحتفل إلا بعدد محدود من المناسبات باستثناء عيد الميلاد وعيد الفصح وبعض الأعياد الأخرى؛ أما يوم الأحد فيحتفل به بشكل خاص. يوجد هنا تسامح بين أتباع كل المذاهب الدينية.

ـ الإنجليزي بيتر مندي واصفاً أمستردام، سنة ١٦٤٠

يشتهر الهولنديون بأشياء كثيرة من بينها القباقيب وطواحين الهواء وورود الخزامى والرسامين رمبراندت وفيرمير – ولكن قد لا يخطر في بال الكثيرين في

هذه الأيام أن الهولنديين تربعوا يوماً ما، على عرش أهم إمبراطورية بحرية تجارية في العالم، وهي الإمبراطورية التي سبقت نظيرتها البريطانية مباشرة. كما لا يتذكر الكثيرون أن الهولنديين كانوا يوماً ما، أكبر منتجي طيب سنور الزّباد في العالم.

يُستخرَج الطيب من قطط الزّباد التي هي ليست في الحقيقة قططاً أبداً، بل من فصيلة حيوان النمس الذي يتواجد في آسيا وأفريقيا حيث موطنه الأصلي. يُعد لحم النمس وجبة فاخرة في الصين الجنوبية - «النمر» في حساء التنين ، والنمر وطائر الفينيق الشهي. ارتبط اسم قطط الزّباد سنة ٢٠٠٤، بغاز الأعصاب "السارس" SARS القاتل؛ فأبيدت الآلاف منها. بالإضافة إلى أهميته كطعام شهي، فإن النمس له قرب مؤخرته غدة عطرة شبيهة بالزبدة تحتوي على مادة تسمى الطيب ومنها تستخرج أجود أنواع العطور في العالم.

في العصور الوسطى، كان الطيب يدخل في تركيب كرات عطرية كان يعتقد أنها تقي من الأمراض. أصبحت تلك الكرات العطرية في القرن السادس عشر مكوناً ثميناً من مكونات أفخم أنواع العطور التي قام بتركيبها أشهر العطارين في باريس. وقبل البدء في تصنيع مواد الاستحمام ومزيلات روائح الجسم، كانت العطور القوية الرائحة، والتي تغطي رائحة الجسم مطلوبة جداً من قبل الطبقات الغنية. في واقع الأمر، لم تكن سوى القلة القليلة من البضائع أغلى ثمناً من أونصة الطيب العالية الجودة، وفي بعض الأحيان، كانت أغلى حتى من الذهب.

نتيجة لذلك ازدهرت، تجارة قطط النمس في القرن السابع عشر، وتحولت إلى تجارة عالمية؛ وحاول كثيرون الإفادة من هذه التجارة. كانت إنجلترا في عهد دانيال ديفو على سبيل المثال تعيش على تربية قطط النمس قبل أن يكتب روايته الشهيرة "روبنسون كروزو". ولكن بحلول العشرينيات من القرن السابع عشر، احتكر الهولنديون تجارة قطط النمس.

أرسلت شركات تابعة للتجار في أمستردام سفناً هولندية إلى الهند، وجزيرة

جاوا وغينيا، وعادت محملة بآلاف من قطط النمس. كانت تلك القطط تربى حينها في أقفاص في أمستردام حيث كان يقدم لها الحليب وقشور البيض وذلك لكي يكون الطيب الذي تفرزه أبيض اللون، بدلاً من لونه الطبيعي الأصفر الميال إلى البني. كان العمال المدربون يقومون كل بضعة أيام بتكبيل تلك الحيوانات الحية، ويشقون غددها الشرجية، ومن ثم يستخرجون بعناية مادة الطيب منها. كان الطيب بعدها يعبأ بسرعة في زجاجات - يتحول الطيب إلى اللون الأسود ويصبح أكثر سماكة إذا ما تعرض للهواء - ثم يصدر مرافَقاً بوثائق تثبت نقاءه إلى الأسواق المترفة في جميع أنحاء أوروبا.

كان الطيب واحداً من البضائع الغالية الثمن التي يتم تداولها في أوروبا - وهي البضاعة التي تدر أرباحاً وفيرة من بين البضائع الفاخرة - والتي احتكرتها الجمهورية الهولندية خلال طيلة القرن السابع عشر تقريباً. كانت المعادلة في غاية الوضوح. كانت السفن الهولندية تبحر إلى أقاصي الأرض حاملة على متنها في طريق العودة التوابل والبهارات من جزر الهند الشرقية، والسكر من البرازيل وساو تومي، والموهير التركي، والصوف الكاستيللي والقطن الهندي والألماس الخام. كان الهولنديون يتاجرون في هذه البضائع في كافة أنحاء أوروبا، أو يعودون بها إلى هولندا نفسها، حيث كانت هذه المواد الخام تعالج ويعاد تصديرها، وكان الهولنديون يجنون أرباحاً طائلة من بيع هذه المواد على شكل سجاد فاخر، وحرير مطرز وكتان ناعم وألماس مصنع بطريقة رائعة. كانت أرباح هذه التجارة العالمية وفيرة لدرجة أن الإيطاليين والألمان والفرنسيين والإنجليز حاولوا السيطرة عليها، أو على الأقل، على جزء منها.

لا بد من الإشارة إلى موضوع التسمية التي كانت محيرة بالنسبة إلى الأراضي المنخفضة: فالدولة الأوروبية التي يطلق عليها اليوم اسم مملكة الأراضي المنخفضة، غالباً ما كان يطلق عليها إلى الآن اسم هولندا، حتى من قبل الهولنديين أنفسهم. من الناحية التقنية، تضم الأراضي المنخفضة فقط الإقليمين الأكثر أهمية من

الناحيتين الاقتصادية والسياسية وهما شمال هولندا وجنوب هولندا، واللذان يضمان مدناً رئيسة مثل أمستردام، وديلفت، وهارلم، والهيغ، وليدن، وروتردام.

ما زاد الأمور تعقيداً، هو أن حدود هولندا وإطارها السياسي خضعت إلى الكثير من التغيير بمرور الوقت. كانت أراضيها في العصور الوسطى تغطي بشكل تقريبي ما يعرف اليوم ببلجيكا، واللوكسمبورغ وشمال غرب فرنسا؛ وكانت هولندا تعرف باسم الأراضي المنخفضة (حصلت بلجيكا واللوكسمبورغ على استقلالهما في ثلاثينيات القرن التاسع عشر.) جلب الإصلاح معه تغيرات جذرية. وقعت المناطق الجنوبية مدة من الزمن تحت سيطرة الهابسبورغيين الكاثوليك، بينما أصبحت هولندا الشمالية التي كانت تقطنها غالبية بروتستانتية تعرف باسم الأقاليم المتحدة [٢].

سأحاول في هذا الفصل استخدام كل هذه التسميات - البلدان المنخفضة، والأراضي المنخفضة، والجمهورية الهولندية، والأقاليم المتحدة - بناء على السياق التاريخي. أما هولندا، فستشير بشكل عام إلى الأقاليم التي تقع تحت هذه التسمية فقط.

قبل الارتقاء

بدأت الجمهورية الهولندية التي شقت طريقها نحو الشهرة العالمية في القرن السابع عشر، كالإمبراطورية المغولية العظمى، بداية متواضعة جداً. فقبل سنة ١٢٠٠، كانت هولندا والمناطق المنخفضة الأخرى في الأراضي المنخفضة عملياً - وفي بعض الأحوال، بشكل فعلي - تحت الماء. (يبدأ انحدار الأراضي المنخفضة من الشرق باتجاه الغرب، وصولاً إلى بحر الشمال. وتقع أعلى نقطة في تلك البلاد في الجنوب الشرقي. تقع ٢٧ في المئة من مساحة هذه البلاد التي يعيش فيها ما يقرب من ٦٠ في المئة من السكان حتى يومنا هذا، تحت مستوى سطح البحر.) كما تقع هذه المنطقة التي تتشكل من «بقايا الرمل والطين الرطب من مخلفات العصر الجليدي» في الدلتا المليئة بالمستنقعات التي تتوسط ثلاثة أنهر؛ وهي منطقة غير مأهولة، ولا تصلح للزراعة، وغالباً ما كانت هذه المنطقة خطرة بسبب الفيضانات.

بدءاً من القرن الثالث عشر، كانت المناطق الرئيسة المغمورة بالمياه بما في ذلك أمستردام الحالية وروتردام قد أعيد تجفيفها بفضل بناء السدود المحكمة البناء والحواجز وأنظمة التصريف. وبالرغم من أن طواحين الهواء لم يكن قد تم اختراعها في هولندا – إذ إن أولى النماذج من هذه الطواحين ظهرت في بلاد فارس في القرن التاسع – فإن الهولنديين وضعوا اللمسات الأخيرة على هذه التقنية مستخدمين طاقة الرياح لضخ المياه باتجاه مناطق أكثر أماناً. اعترف الكاتب الساخر الإنجليزي أوين فيلثام الذي أطلق على جمهورية هولندا تسمية «المستنقع العالمي» وأيضاً « قطعة الجبن الخضراء في مَرَق المخلل» بأن الهولنديين «كانوا بشكل من الأشكال آلهة وذلك لأنهم استطاعوا وضع حد للمحيط الذي سمحوا له بالتقدم والتراجع بناء على هواهم» (٣).

مع ذلك، كانت البلدان المنخفضة حتى عقد الخمسينيات من القرن الرابع عشر منطقة لا يكترث لها أحد على الخريطة الأوروبية الشاملة، وكانت يعتمد أبناؤها في حياتهم بشكل رئيس على الزراعة، ولم تكن في مجملها أكبر حجماً من ولاية تينيسي. على عكس كل من فرنسا أو أسبانيا اللتين كانتا تحكمهما ملكيتان قويتان، كان الحكم في البلدان المنخفضة محلياً ولا مركزياً. أما بالنسبة لموضوع التسامح الديني، أو غيابه في واقع الأمر، فلم تكن البلدان المنخفضة تشكل استثناء. وكما كانت الحال في كافة أنحاء أوروبا بالنسبة لوباء الطاعون الذي انتشر فيها، فقد ألقي اللوم في الأراضي المنخفضة على أسباب عديدة – حركة الكواكب غير الملائمة، وخطايا العالم – ولكن اليهود بشكل خاص نالوا نصيبهم من اللوم:

> كان الموت الأسود مدمراً لدرجة أنه يمكن ببساطة اعتباره مؤامرة ضد الإنسانية. ومن غير اليهود يمكن أن يكون وراء هذه المؤامرة؟ فاليهود، كما يعرف المسيحيون جميعاً، هم أعداء الكنيسة؛ وهم يسعون دائماً إلى تدمير المسيحية والقيام بالاستيلاء على العالم بدلاً منها. اليهود هم المجرمون: فقد تناقلت الأخبار أنهم قاموا بتلويث الآبار بسموم العناكب وطيور البوم والسحالي والعُظاءات السامة ودم الأطفال وخبز القربان المقدس. وهذا السم تم إعداده في طليطلة من قبل اليهود الأسبان، ثم نقل في حقائب وأكياس من الجلود وألقي في الآبار (٤).

قامت السلطات في البلدان المنخفضة بوسم اليهود واضطهادهم، حتى بعد انحسار موجة الطاعون تلك. كان اليهود في الأراضي المنخفضة يرغمون على لصق رُقَع تعريف خاصة بهم (بعكس القبعات الحمراء الشائكة التي أرغموا على ارتدائها في ألمانيا في الحقبة نفسها تقريباً.) اتُّهم أحد الشبان اليهود، وكان وسيماً جداً، «بخلب ألباب» الفتيات. وقد تم سجن هذا الشاب الذي كان يعرف «باليهودي ذي الشعر الجميل» في قلعة حبسه فيها دوق روزندال، ثم تم طرده في نهاية المطاف من آرنهيم. صدرت قوانين في بداية القرن الخامس عشر تم بموجبها وضع قيود على ممارسات الإقراض اليهودية، وهو ما كان يعني إيقاف المصدر الوحيد لوسائل العيش المتاحة أمام اليهود. بقي اليهود حتى نهاية القرن السادس عشر كماً مهملاً في البلدان المنخفضة (٥).

الكاثوليك في مواجهة البروتستانت: قيام الجمهورية الهولندية

كانت البلدان المنخفضة في معظم مراحل القرن السادس عشر جزءاً من إمبراطورية هابسبورغ، التي كانت تمتد حينها من النمسا إلى أسبانيا. ربما كان من المفيد الخروج قليلاً عن سياق الموضوع الرئيس للتحدث في الكيفية التي وقعت فيها أسبانيا تحت سيطرة الهابسبورغيين. كان لفرديناند وإيزابيلا خمسة أولاد من الذكور والإناث؛ وكانت واحدة من بناتهما معروفة بلقب جوانا المجنونة. تزوجت جوانا من فيليب الوسيم الذي كان وريث عرش إمبراطورية هابسبورغ والمناطق البورغوندية، ووضعت مولوداً أسمياه تشارلز الخامس. بعد وفاة جده فرديناند الأرغوني سنة ١٥١٦، أصبح تشارلز الخامس الملك الهابسبورغي الأول لأسبانيا. وبحلول سنة ١٥١٩، ونتيجة لأواصر القربى الملكية المختلفة التي ينتمي إليها، أصبح تشارلز حاكماً على بورغوندي، وكبير دوقات النمسا، وملكاً على الأراضي المنخفضة. وجرى تتويجه في السنة نفسها أيضاً، إمبراطوراً رومانياً مقدساً.

obeikandl.com

كان تشارلز الذي ولد في مقاطعة غينت متعاطفاً مع الهولنديين. تمتعت البلدان المنخفضة أثناء مدة حكمه بحقوق تجارية لا محدودة، وأصبحت تسيطر على معظم مفاتيح التجارة العالمية. كان مجيء الإصلاح (البروتستانتي) عاملاً تقسيمياً في الأراضي المنخفضة كما في بقية أنحاء أوروبا. فقد اكتسحت الكالفينية بقوتها الخانقة البلدان المنخفضة، واضعة البروتستانت في مواجهة الكاثوليك في المقاطعات الشمالية والمقاطعات الجنوبية على حد سواء. وقد وصل هذا الصراع إلى أقصى مداه سنة ١٥٥٦ وذلك عندما تنازل تشارلز عن سيطرته على كل من الأراضي المنخفضة وأسبانيا لصالح ابنه فيليب الثاني.

ولد فيليب وترعرع في أسبانيا بعكس أبيه، ولم يكن يتحدث اللغة الهولندية، وأعلن صراحة احتقاره للبلدان المنخفضة. كان أيضاً كاثوليكياً شديد التعصب. وجعل فيليب من أهم أولوياته وقف المد التوسعي لحركة الإصلاح، وبالتالي فقد «شن واحدة من أكثر الهجمات دموية ودراماتيكية، ومضطربة الرؤى في تاريخ أوروبا الحديث»[٦].

طالب فيليب بإظهار الولاء التام لكنيسة الروم الكاثوليك، وقام بتعيين حكام كاثوليكيين لا يتقنون اللغة الهولندية في كافة أنحاء الأراضي المنخفضة. بدأت العديد من الأقاليم الشمالية في ستينيات القرن السادس عشر تعبر عن سخطها وتمردها بقيادة وليام الصامت من إقليم أورانج على نير الاستعمار الأسباني. رد فيليب بإرسال عشرة آلاف جندي بقيادة الدوق الأسباني "ألفا" للتعامل مع مثيري الشغب. وكان الدوق ألفا على حد تعبير أحد الكتاب «غير قابل للتغير، وحتى متعصباً في موضوع كراهيته للهرطقة البروتستانتية. ... وكان مستعداً لاستخدام القسوة الشديدة ولكن ضمن حسابات شديدة الانضباط. كانت رؤيته مزيجاً غريباً من العالمية الإنسانية، والكراهية المبنية على رهاب الأجانب. ...وكان تشككه العميق في أفراد طبقة النبلاء في الأراضي المنخفضة وسكانها بشكل عام يترافق مع احتقار مكشوف لم يكلف نفسه عناء إخفائه».

في واحدة من حالاته النفسية الأقل إنسانية قام ألفا فور وصوله إلى الأراضي المنخفضة بتشكيل محكمة - أطلق عليها وصف «مجلس الدم» - قرر من خلالها إعدام ألف من الهولنديين بعضهم من المواطنين المشهورين، ومصادرة أملاك أعداد أكبر من المواطنين وزجهم في السجون. كما قام بفرض ضرائب جديدة عالية. بدأت الثورات الشعبية تتفجر ابتداءً من سنة ١٥٧٢ في كافة مناطق الأراضي المنخفضة الشمالية. رد ألفا على هذه الثورات بوحشية حيث قام بتدمير مدينة هارلم، وذبح سكان مدن ميشلين، وناردين، وزوتفين. كان وصول «متسولي البحار» الهولنديين -وهم عبارة عن قوات مناهضة بشدة للكاثوليك، ويشبهون القراصنة، وتم طردهم مؤخراً من المرافئ الإنجليزية - الذين كانوا سبباً في توسع رقعة أعمال العنف في السنين الأربع اللاحقة قد زاد الأمر سوءاً. ما حدث بعد ذلك لم يكن متوقعاً أبداً[٧].

في سنة ١٥٧٦، قامت الوحدات العسكرية الأسبانية المتمردة بسبب تضور جنودها جوعاً - نظراً إلى أن فيليب الثاني المستنزف مادياً لم يكن بمقدوره دفع رواتبهم - بترك ثكناتها في الشمال المتمرد والتوجه نحو الجنوب المزدهر اقتصادياً؛ مخربة في طريقها مدينة أنتويرب وذبح ما يقرب من سبعة آلاف مواطن. أطلق على هذه الحادثة وصف "الغضب الأسباني". بالرغم من أن المذبحة حصلت في الجنوب، فقد كان تأثيرها أشد وقعاً في الشمال حيث تم تصويرها بتفاصيل رؤيوية من قبل الشعراء والفنانين المعاصرين، واعتُبِرت جزءاً من قصة الولادة الوطنية للأراضي المنخفضة. تروي قصة أرخها شاعر أمستردام بيتر هوفت، حكاية عروس تم اغتصابها وقتلها ليلة زفافها من قبل ضابط أسباني سادي: «قام بتعريتها، نزع عنها ثيابها وأطواقها وملابسها الداخلية، وأي شيء ترتديه من أعلى رأسها إلى أخمص قدميها وانتزع كل ما استطاع أن ينتزعه من ذلك الجسد الطاهر.» وبعد أن قام باغتصابها، قام ذلك الضابط «بمطاردتها كما ولدتها أمها، والدماء تقطر من الجروح التي لا حصر لها في جسدها في أنحاء المدينة».

أدت ثورة الغضب الأسباني هذه إلى توقيع معاهدة صلح أطلق عليها "معاهدة

غينت" وكانت بنودها تتضمن توحيد أقاليم الشمال والجنوب الهولنديين من أجل طرد القوات الأسبانية. لكن معاهدة الصلح تلك لم تعش إلا مدة قصيرة. ففي سنة ١٥٧٩، أعلنت الأقاليم الجنوبية التي يتزعمها نبلاء كاثوليك من ذوي النفوذ القوي ولاءها من جديد للملك فيليب الثاني وللكنيسة الكاثوليكية. أعلنت الأقاليم الشمالية في معرض ردها على تلك الخطوة، استقلالها الذاتي وحقها في ممارسة الحرية الدينية. بعد سنتين على ذلك، قاموا بتفعيل "قسم التخلي عن المذهب" الذي كان بمنزلة إعلان للاستقلال، وجدت مقدمته المفعمة بالعاطفة صدى كبيراً لها في التاريخ الأمريكي بعد انقضاء مئتي سنة على إعلانها:

> من الواضح للجميع أن الأمير قد اختاره الرب لكي يحكم الناس، ويدفع عنهم الاضطهاد ويجنبهم العنف، تماماً كواجب الراعي تجاه قطيعه؛ وبينما لم يخلق الرب الناس كي يكونوا عبيداً لأميرهم، أو يقدموا له فروض الطاعة العمياء سواء كان على حق أو على باطل، فإن على الأمير ألاّ يعامل شعبه على هذا الأساس ... وعندما لا يتصرف الأمير على هذا الأساس، بل يقوم بعكس ذلك؛ أي عندما يقوم باضطهاد رعيته، ويتحين الفرص كي يقضي على عاداتهم وتقاليدهم وحقوقهم، وينتزع منهم طاعة كطاعة العبد للسيد، فإنه عندئذ لا يعود له الحق في لقب الأمير، بل يتحول إلى طاغية، وهنا يتعين على رعاياه ... ليس فقط وضع حد لسلطته ونفوذه بل البحث من خلال الطرق القانونية عن أمير آخر يرعى مصالحهم ويدافع عنها. هذا ما يقره ... قانون الطبيعة دفاعاً عن الحرية التي يجب علينا أن نجيّرها إلى ذريتنا حتى لو كان ذلك على حساب حياتنا.

بعد ذلك الإعلان، أصبحت الأقاليم الشمالية السبعة تسمى أقاليم الأراضي المنخفضة المتحدة، بينما بقيت الأقاليم العشرة الجنوبية تحت السلطة الأسبانية[٨].

لكن فيليب الثاني لم يقر أبداً بالهزيمة. على العكس من ذلك، قام بوضع جائزة مقدارها ٢٥٠٠٠ قطعة ذهبية مقابل رأس وليام الصامت، ثم أرسل قوات إضافية لقمع التمرد في الشمال. ونظراً إلى أن وليام كان يعي مدى التفوق الأسباني، فقد رد على ذلك بأن عرض قيادة الجمهورية الجديدة المكبلة بالعديد من الإجراءات الدستورية على دوق آنجو، وهو الأخ الأصغر لملك فرنسا. قبل الدوق العرض لكنه فر

obeikandi.com

بعد أقل من سنتين من مواجهة الجيش الأسباني المتقدم. اغتيل وليام الصامت سنة ١٥٨٤ على يد أسباني يدعى بلتزارد جيرارد. لكن جيرارد هذا لم يتسلم جائزته أبداً. كان الهولنديون قساة غلاظ القلوب، فقد ابتكروا عقوبة غير مألوفة لمن يقوم بعمليات الاغتيال، وهكذا فقد واجه جيرارد نهاية مؤلمة استخدمت فيها بشكل مبتكر قضبان الحديد الحامية وشحم الخنزير المسلوق والمغلي.

بعد مقتل وليام، عرض الهولنديون على ملك فرنسا نفسه السيادة على الأراضي المنخفضة، لكن هنري الثالث الذي كان غارقاً في مشكلات الحرب الأهلية ومترددا بشأن جدوى مجابهة أسبانيا، رفض ذلك العرض. بعد ذلك عرض الهولنديون أنفسهم على إليزابيث، ملكة بريطانيا التي بدورها رفضت العرض [٩].

المُهجّنون والأفاعي
التسامح في الجمهورية الهولندية

نحن الآن في سنة ١٥٨٨. حاولت الأقاليم المتحدة العاجزة عن الدفاع عن نفسها تسليم بلادها إلى كل من فرنسا وإنجلترا ولكن من دون جدوى. لا يبدو أن الهولنديين قد نجحوا في السيطرة على العالم. مع ذلك، أصبحت الجمهورية الهولندية بحلول سنة ١٦٢٥ «قوة مهيمنة على اقتصاد العالم الرأسمالي» – أي الإمبراطورية «العالمية الأولى بحق» [١٠]. فما الذي حدث؟

أصبحت الجمهورية الهولندية الصغيرة القوة الاقتصادية المطلقة في العالم في القرن السابع عشر وذلك من خلال تحولها إلى ملاذ للفارين من المستثمرين من بقية أنحاء أوروبا. من المؤكد أن تطورات أخرى حدثت بطريق المصادفة، وساعدت في جعل ذلك ممكناً. فالحروب التي اندلعت بين أسبانيا وإنجلترا وفرنسا على سبيل المثال، أنهكت تلك الدول واستنزفتها مالياً، وأعطت الهولنديين فسحة من الوقت تأجلت بسببها الاعتداءات الأسبانية عليها. لكن أهم عامل على الإطلاق في انطلاق الهولنديين باتجاه تبوء موقع قيادة العالم كان فورة اقتصادية استثنائية. وهنا أثبت التسامح الديني الذي تجلى في سياسات الجمهورية الهولندية الاستثنائية أنه لا غنى عنه في تحقيق ذلك.

إذا أخذنا بعين الاعتبار الاضطهاد والتعصب والحروب الدينية التي سادت في أوروبا في القرن السابع عشر، تظهر بجلاء سياسات التسامح اللافتة للنظر، والتي اتبعتها الجمهورية الهولندية. فالأقاليم المتحدة لم تكن فيها كنيسة تتبعها الدولة، وهو ما كان غير مألوف البتة في بقية أنحاء أوروبا. أكد الميثاق التأسيسي لاتحاد أوتريخت سنة ١٥٧٩ على أن «كل شخص سوف تكون له كامل الحرية في اختيار دينه و... لن يتعرض أي شخص إلى الاضطهاد بسبب الديانة التي يؤمن بها.» فالدولة لم تجبر أياً كان، على الالتزام بتعاليم كنيسة الإصلاح البروتستانتية، أو تفرض غرامات لعدم اعتناق هذا المذهب، أو تعاقب غير المؤمنين.

دعا العديد من رجال الدين بالطبع من على منابرهم إلى اعتناق المذهب الأرثوذكسي شاجبين بشدة المواقف السلبية من استخدام موسيقى آلة الأرغن في الكنيسة، واستمرار المهرجانات الوثنية والمعارض الريفية والحمى الفضائحية «لموضة الشعر الطويل المجعد» التي اجتاحت أنحاء الجمهورية في الأربعينيات من القرن السابع عشر. بالإضافة إلى ما تقدم، كانت كنيسة الإصلاح البروتستانتي تحتل دائماً موقعاً متميزاً. رسمياً، لم يكن من المسموح لغير الأعضاء المنتسبين لهذه الكنيسة تبوء مناصب حكومية، كما أنه لم يكن من الممكن التصريح عن الانتماء إلى ديانات أخرى «بشكل علني».

أما من حيث الممارسة الفعلية، فقد انتشرت البدع الدينية مترافقة مع التسامح الديني. فقد سمح للأبرشيات المحلية أن تختار الكيفية التي تريد أن تعبر بها عن طهارتها ونقائها، واختارت معظم تلك الأبرشيات المرونة في التعبير عن ذلك. فإلى جانب الغالبية الكالفينية، كان هناك الكاثوليك واليهود واللوثريُون والمينونيُون والمحتجُون الذين سمح لهم جميعاً بتأسيس أماكن عبادة «غير ظاهرة»، وعقد نقاشات وطباعة كتبهم المقدسة والفكرية الخاصة بهم. بالإضافة إلى ذلك، كان العديد من موظفي الحكومة مجرد أعضاء في الكنيسة الإصلاحية، وبالكاد كانوا يحاولون إخفاء ميولهم الحقيقية المعادية للأرثوذوكسية [١١].

وهكذا، ففي سنة ١٦١٦، عندما كان اليهود يتعرضون في بقية أنحاء أوروبا المسيحية للهجوم والإرهاب، كتب الحاخام إسحق أوزيل إلى أحد المراسلين ما يأتي: «يعيش شعبنا في الوقت الحاضر بأمان في أمستردام. يقوم سكان هذه المدينة الذين يعون جيداً الزيادة في أعدادهم بوضع قوانين وترتيبات يسمح بموجبها بحرية الأديان. يمكن لأي شخص أن يكون على الدين الذي يريد طالما أنه لا يظهر في العلن أنه يتبع ديناً مغايراً للدين الذي تتبعه غالبية سكان المدينة.» وبالرغم من أن طقوس الصلاة اليهودية كانت تمارس في البيوت في بداية الأمر، إلا أنه سمح لليهود ببناء كنسهم في أمستردام منذ عشرينيات القرن السابع عشر. في الواقع، كان مجلس مدينة أمستردام، ومنذ سنة ١٦١٢، «يتصرف كما لو أن اليهود لهم الحق الكامل في ممارسة شعائرهم الدينية علناً.» سنة ١٦٧٥، تم بناء كنيس أمستردام لطائفة السفارديم الرائع الشكل. بني هذا الكنيس بأعمدته الكبيرة ومقاعده ذات المساند، والمصنوعة من خشب السنديان الداكن وثرياته النحاسية على شكل هيكل سليمان الافتراضي في القدس، وكان يتسع لألفيّ مصلٍّ؛ إلا أنه لم يكن «غير ظاهر»، كما كان مفترضاً فيه أن يكون. وفي الوقت نفسه، أسس اليهود الإشكنازيون كنيسهم الخاص بهم في الطرف المقابل من الشارع؛ وكان يحتوي على مقر لحاخاماتهم وأنظمتهم الخاصة بهم ودور نشرهم التي تطبع بلغة ألمانية خاصة إنما بالحروف العبرية [١٢].

كانت الحرية الدينية الاستثنائية في الجمهورية الهولندية مادة للنقاش في أوروبا. كان هناك القليل من المعجبين بهذه الحرية الدينية بمن فيهم بلزاك الذي كتب إلى ديكارت سنة ١٦٣١: «هل هناك بلد تستطيع فيه التمتع بحرية كاملة مثل هذه ... وفي أي مكان غير هذا استطاعت براءة أجدادنا أن تجد لنفسها موطناً؟» لكن معظم الأجانب هالهم ما رأوه من فسوق ديني في الجمهورية الهولندية. تساءل أحد الدعاة الإنجليز: «هل هناك في كل العالم المسيحي مذاهب هجينة تنق وتبيض وتفرخ في مستنقعاتها القذرة كما يحدث هنا؟» عبر آخر عن استيائه بالقول: «ترى أحياناً سبعة أديان تمارس ضمن العائلة الواحدة.» حتى أولئك الذين أفادوا من كون الجمهورية الهولندية ملجأ لهم، عبروا عن استيائهم مما وصفه المؤرخ سيمون

سكاما « بقبو الأديان الرخيصة» الذي وجدوا أنفسهم فيه – إنه، كما عبر عنه أحد الإنجليز، «وكر فيه مجموعة من الثعابين تستطيع فيه أن تكون ما تشاء طالما أنك لا تنطح الدولة بقرنيك» (١٣).

كان هناك جانب للتسامح الديني الهولندي محسوب بعناية. فقد تبنت العديد من الشخصيات السياسية الرئيسة في الجمهورية الحرية الدينية على أساس أن لها مزايا اقتصادية ملموسة. ذكر بيتر دو لا كورت على سبيل المثال في كتابه Interest of Holland أن «التسامح كان ضرورياً» من أجل «تشجيع الهجرة التي كانت الحاجة إليها ماسة كي تنعش الاقتصاد وتزيد من عدد سكان المدن في هولندا.» لقد حقق التسامح الذي كانت الدوافع إليه المصالح الاقتصادية، الكثير من النجاح.

تحولت الجمهورية الهولندية إلى ملاذ آمن لموجات من اللاجئين الدينيين من مختلف أنحاء أوروبا – البروتستانت من جنوب الأراضي المنخفضة، والهوغونيون من فرنسا، واللوثريون الألمان، ويهود السفارديم من أسبانيا والبرتغال، ويهود الأشكناز من أوروبا الشرقية، والصاحبيون الكويكريون، والحجاج من إنجلترا. (كان الحجاج الذين يمثلون فرعاً منشقاً عن التطهيريين، والذين كانوا يتعرضون بشكل خاص للاضطهاد في إنجلترا قد وجدوا في هولندا ملاذاً آمناً مدة اثنتي عشرة سنة قبل أن يهاجروا على متن سفينة May flower سنة ١٦٢٠ باتجاه إنجلترا الجديدة في ما يعرف اليوم بشرقي الولايات المتحدة الأمريكية.) كما حل بالجمهورية مهاجرون قصدوها من أجل غايات اقتصادية بحتة. بين سنتي ١٥٧٠ و١٦٧٠ على وجه التقريب، وبينما كانت الكثير من المدن الأوروبية تضيق بسكانها، ازداد عدد سكان مدينة أمستردام من ٣٠٠٠٠ إلى ٢٠٠٠٠٠ نسمة. ومدينة ليدن من ١٥٠٠٠ إلى ٧٢٠٠٠ نسمة، وهارلم من ١٦٠٠٠ إلى ٥٠٠٠٠ نسمة، وروتردام من ٧٠٠٠ إلى ٤٥٠٠٠ نسمة. شكل المهاجرون بمجملهم المحرك الذي دفع بالجمهورية الهولندية – ولمدة نصف قرن – باتجاه تبوء موقع السيطرة الاقتصادية العالمية، وفي كل مجال من مجالات الاقتصاد (١٤).

«الروح الرأسمالية»
الخسارة الأسبانية والمكاسب الهولندية

أسهم اليهود، والبروتستانت بدرجة أكبر، في زيادة أوار الفورة الاقتصادية الهولندية - وكان الجانبان قد فرا من الاضطهاد في أسبانيا الهابسبورغية. وفي الوقت الذي كونت فيه هاتان المجموعتان جماعتين سكانيتين مزدهرتين في هولندا، فقد جعلتا من الجمهورية الهولندية المركز العالمي للتجارة، والاقتصاد والمال.

خذوا على سبيل المثال، تجارة الألماس. قبل سنة ١٧٢٥، عندما اكتشف الألماس في البرازيل، كانت كل تجارة الألماس الخام تأتي فعلياً من الهند. أكثر أحجار الألماس شهرة في العالم هي من الهند بما في ذلك الألماسة الأسطورية التي تدعى "الأمل" وهي ألماسة نادرة زرقاء اللون، تزن ٤٤،٥ قيراطاً والألماسة المغولية العظيمة التي تزن ٢٨٠ قيراطاً (لا يعرف مكانها اليوم بالضبط)، وألماسة الكوهينور التي تزن أكثر من ١٠٠ قيراط، والتي تُعد واحدة من جواهر التاج البريطاني. (طالب أعضاء البرلمان الهندي سنة ٢٠٠٠ الحكومة البريطانية بإعادة هذه الألماسة التي ما تزال حتى الآن ترصع تاج الملكة في برج لندن.) كانت وسائل استخراج الألماس الأولى من المناجم الهندية بدائية. وكان العمال الفقراء من الطبقات السفلى في المجتمع والذين كان يبلغ عددهم في الموقع حوالي ٦٠٠٠٠ - يحفرون في مناجم ضحلة الأعماق في مجاري.. الأنهار. وكان ما يتم نبشه، يُغربل يدوياً من أجل البحث عن الألماس.

كانت عملية تحويل الحجارة الخام المستقدمة من الهند إلى جواهر رائعة براقة ومتعددة الألوان، تزين أعناق سيدات المجتمع المخملي الأوروبيات صناعةً سيطر عليها اليهود. وكانت شبكة من التجار اليهود تمتد من مدراس إلى القاهرة، إلى البندقية تسيطر على تجارة الألماس العالمية منذ سنة ١٠٠٠ ميلادية. طور اليهود الذين كانوا يعملون في مجال الإقراض الرِّبَوي منذ القدم (لأنه كان من المحظور عليهم ممارسة أعمال أخرى لكسب لقمة عيشهم) خبراتهم في تقييم أسعار

الجواهر وقصها وبيعها، والتي كانت غالباً ما ترتهن لديهم مقابل القروض التي يقدمونها. نتيجة لذلك، كان اليهود يصطحبون معهم أينما حلوا، تجارة الألماس، بالإضافة إلى شبكة تجارية ومالية واسعة تربط أوروبا ومنطقة البحر المتوسط بآسيا وأفريقيا والأمريكيتين.

عندما قامت أسبانيا بطرد مواطنيها من اليهود سنة ١٤٩٢، استقر العديد منهم في لشبونة، وفيما بعد، في مدينة أنتويرب (التي كانت حينها ما تزال تحت حكم الهابسبورغيين). لم يكن من قبيل المصادفة أن كلتا المدينتين أصبحتا مركزي انطلاق عالميين في المجالين التجاري والمالي. أصبحت لشبونة نقطة الدخول بالنسبة إلى كل قطعة ألماس قدر لها أن تدخل إلى أوروبا، كما تحولت أنتويرب إلى أشهر مركز عالمي لقص وتقطيع حجارة الألماس. بحلول سنة ١٥٥٠، أصبح ميناء أنتويرب من الازدحام بحيث إن السفن التجارية القادمة إليه كان عليها أن تنتظر في صفوف طويلة قبل إفراغ حمولتها: أصبحت المدينة المركز الآمن لتبادل البضائع والأموال في الإمبراطورية الهابسبورغية برمتها، لا بل تحولت إلى «سوق مالية كبرى» لأوروبا بكاملها [١٥].

لكن ظهور التعصب كلف الهابسبورغيين غالياً. عندما بدأت محاكم التفتيش بضرب البرتغال في أربعينيات القرن السادس عشر، بدأ اليهود والمُهتدون بالهرب إلى مدن أكثر تسامحاً في هولندا. كان هؤلاء اليهود والمهتدون الأيبيريون، بالمقارنة مع الأعداد الكبيرة من اليهود الأشكنازيين الفقراء والأميين الذين تدفقوا على هولندا هرباً من المجازر في كل من بولندا وألمانيا، من بين أغنى التجار وأصحاب الأموال في العالم. كان هؤلاء اليهود السفارديم الأنيقين والمتعلمين والأرستقراطيي المظهر - والذين أصبح العديد منهم فيما بعد من طبقة النبلاء - قد ضخوا الكثير من رؤوس الأموال إلى الجمهورية الهولندية التي شكلت دعماً كبيراً للاحتياط النقدي للبنوك، ومصدراً لتمويل الدولة، وزخماً إضافياً للاستعمار الهولندي، كما أدت دوراً محورياً في التأسيس لبورصة أمستردام. بحلول منتصف القرن السابع عشر، حلت

أمستردام محل لشبونة وأنتويرب كمركز للألماس في أوروبا، ونقطة انطلاق لشبكة التجارة والمصارف اليهودية نحو العالم أجمع.

كما أصبحت العائلات اليهودية مشهورة في مجال الصناعات المربحة مثل صناعة التبغ وتكرير السكر، وغزل الحرير، وصناعة الشوكولا، وإنتاج الألماس واستخراج الطيب. (كان من الشائع قيام اليهود السفارديم باستخدام اليهود الأشكناز في أعمال وضيعة. كان اليهود الأشكناز على سبيل المثال، غالباً ما يُشاهَدون خارج أمستردام يقطعون لحم الغنم لإطعام قطط السمور.) لكن الكثير من العائلات اليهودية المعروفة مثل عائلة البلمونت ولوبيس سواسو، ونون دو كوستا، تقدم الدعم للأعمال الخيرية. فقد كانت هذه العائلات راعية لفنانين وشعراء وموسيقيين، وأسست برامج الرعاية الاجتماعية وقامت بتمويل الأكاديميات الدينية والعلمانية على حد سواء. وكانت تقام الحفلات الموسيقية وحفلات الأوبرا في منازلهم الفارهة التي مُلئت بالتحف الفنية والكتب والمخطوطات النادرة (١٦).

لم يغب عن ناظري الأسبان المكاسب التي جنتها الجمهورية الهولندية جراء إيوائها لليهود. حثّ الكثيرون من المستشارين التاج الأسباني على تغيير سياسة محاكم التفتيش، ومحاولة استقطاب "المُهتدين" من جديد، واستمالتهم للعودة إلى أسبانيا. حذّر دييغو دو سيسنيرو سنة ١٦٣٧ على سبيل المثال، من أن اليهود الذين استقروا في أمستردام مؤخراً، يساهمون في تقوية الجمهورية بشكل كبير:

> بدأ المتمردون الهولنديون يرفعون رؤوسهم عالياً، وقويت شوكتهم، وذلك لأن اليهود يمدون لهم يد المساعدة في حروبهم وفتوحاتهم ومفاوضاتهم وكافة طموحاتهم، كما تحولوا إلى جواسيس لهؤلاء المتمردين في أراضي جلالتكم، وتغلغلوا في مراكز التجارة، وإدارة الأرمادا، ومواكب السفن ومصادر التمويل لجلالتكم ... وهم يقومون بامتصاص كافة مصادر الثروة (في كل من أسبانيا والبرتغال) (١٧).

ولكن بقدر ما كان لليهود من أهمية قصوى في مجال الازدهار الاقتصادي

الذي كانت الجمهورية الهولندية تتمتع به، بقدر كانت أعدادهم قليلة، وإسهاماتهم ضئيلة، بالمقارنة مع واحدة من الجماعات الأخرى. ففي نهاية القرن السادس عشر، تدفق سيل من التجار والعمال المهرة والصناعيين البروتستانت إلى الجمهورية، وأدوا دوراً أكبر بكثير في التأسيس لما أطلق عليه ماكس ويبر «روح الرأسمالية» في الأراضي المنخفضة.

في العصور الوسطى، كانت مدينتا غينت وبروج الواقعتان في جنوب الأراضي المنخفضة - بتقاليدهما الطويلة في مجالات الغزل والصباغة والنسيج - منتجيْن مزدهرين للأنسجة الجميلة. وبحلول سنة ١٥٠٠، أصبحت مدينة أنتويرب المجاورة سوقاً للأنسجة الأوروبية ومركزاً صناعياً مهمًا. وبالرغم من أن أنتويرب وغينت وبروج كانت تشكل جزءاً من الإمبراطورية الأسبانية الهابسبورغية، إلا أنها كانت أيضاً مراكز للكالفينية التي كانت منتشرة بين طبقتي التجار والعمال على وجه الخصوص. وبينما كان الاضطهاد للبروتستانت يتعاظم في ظل حكم فيليب الثاني، كانت هذه المدن تعاني من هجرة كارثية للمهارة ورأس المال البروتستانتيين. تقلص عدد سكان أنتويرب بين سنتيّ ١٥٦٠ و ١٥٨٩ من ٨٥٠٠٠ نسمة إلى ٤٢٠٠٠ نسمة. وفي التاريخ نفسه تقريباً، خسرت كل من غينت وبروج ما يقرب من نصف سكانهما أيضاً.

انتقل معظم هؤلاء المهاجرين إلى شمال الأراضي المنخفضة، وكما كان متوقعاً فقد استقروا في أمستردام، وليدن، وهارلم حيث كان بإمكانهم ممارسة شعائرهم الدينية بحرية. كان العديد منهم عمال نسيج مهرة ومن ذوي الاختصاصات المتطورة في هذا المجال. (كان والد فيرمير على سبيل المثال متخصصاً في مجال الساتان المطرز، أما والد جاكوب فان روشديل، فقد كان متخصصاً في طبع الرسوم على السجاد.) اصطحب أولئك المهاجرون معهم ليس فقط المهارة والخبرة، بل أرقى تقنيات معالجة وتكرير المواد الخام. بحلول التسعينيات من القرن السادس عشر، استقر معظم أكثر التجار والصناعيين البروتستانت ثراء من جديد في هولندا

وكان ما أغراهم للقيام بذلك هو الأعداد الكبيرة من العمالة الماهرة، بالإضافة إلى الذهنية التجارية المنتشرة بشكل كبير في تلك المنطقة، والفرص الاقتصادية والاجتماعية التي لا مثيل أو منافس لها، والمتاحة أمام جميع الأفراد والجماعات بغض النظر عن انتماءاتهم الدينية [١٨].

خلال مدة قصيرة جداً، تبوأت الجمهورية الهولندية مقعد القيادة من خلال سيطرتها على قطاع مدهش من الصناعات مثل تكرير السكر وصناعة الأسلحة الحربية وإنتاج المواد الكيماوية - ويعود الفضل في ذلك إلى الخبرات التي كان المهاجرون يتمتعون بها. الأهم من كل ما تقدم، أن هولندا أعادت تموضع أنتويرب كأهم منتج ومشذب للصناعات النسيجية. وبفضل المهارات والتكنولوجيا التي تم الحصول عليها مباشرة من أنتويرب، «أصبحت هارلم مركزاً لتبييض الكتان الخام من ألمانيا ووضع اللمسات الأخيرة عليه ... تخصصت أمستردام في صباغة المواد النسيجية المستوردة من إنجلترا "باللون الأبيض". أما ليدن فقد تم تنشيط الحركة فيها بوجود المهاجرين إلى الأراضي المنخفضة الجنوبية بحيث أضحت أكبر مركز صناعي لإنتاج ما يسمى "الأجواخ الجديدة" في أوروبا في القرن السابع عشر.»

لم تمضِ سوى مدة قليلة قبل أن تقوم هولندا بالسيطرة على«كافة أنواع تجارة المواد الباهظة الثمن» والتي كانت تسيطر عليها فيما مضى عصبة الهانسيتيين (وهي عبارة عن تحالف كان يضم نقابات تجارية في أوروبا الشمالية) والإنجليز، وقبل ذلك تجار البندقية. كانت أساطيل السفن المحملة بالكتان المكرر، والمخمل، والخملة، والساتان، والدمقس تبحر من هولندا إلى موانئ شهيرة في كل من أسبانيا والبرتغال. كان الهولنديون يبيعون هناك المواد النسيجية مقابل الفضة الأسبانية التي اشتروا بها مواد خام وبضائع فاخرة من الإيست إنديز والعالم الجديد: التوابل والسكر والبهارات والمعادن والقهوة والشاي والمرجان والقطم والحرير والصوف والموهير. أصبح الهولنديون بسرعة، وبفضل الكميات الوفيرة من الفضة التي تحملها تلك السفن المهيأة بشكل جيد، وشبكاتها التجارية التي لا تجارى في مناطق

obeikandl.com

البلطيق وشمال أوروبا، لو استعرنا عبارة دانيال ديفو: «حَمَلَة العالم، وسماسرةً تجاريين، ووسطاء متقاضين للعمولة في كل أنحاء أوروبا»[١٩].

لقد تركزت في واقع الأمر بين أيدي الهولنديين ثروة هائلة من التجارة في المواد الباهظة الثمن؛ وهو ما دفع الأسبان سنة ١٥٩٨ إلى فرض حظر على جميع السفن الهولندية منعت بموجبه تلك السفن من الرسو في الموانئ الأيبيرية، وهم أملوا من خلال ذلك أن يمنعوا الهولنديين من الحصول على البضائع التي ترد إليهم من المستعمرات. وقد ارتكب بذلك الأسبان خطأً جسيماً. فبعد أن بدأت هذه الإجراءات تشكل تهديداً لموارد أرزاقهم، وبوجود رأسمال جاهز للاستثمار أكثر من أي وقت مضى، قررت نخب التجار الهولنديين تجاوز كل من البرتغال وأسبانيا بالكلية، وإرسال سفنهم مباشرة إلى الإيست إنديز والأمريكيتين. وهكذا، أنشئت شركة شرق الهند المتحدة، ولاحقاً، شركة غرب الهند المتحدة؛ ومعهما، برزت الجمهورية الهولندية قوة استعمارية عالمية[٢٠].

إمبراطورية: «الذهب هو ربُّكم»

بحلول سنة ١٦٠١، كانت هناك ثماني شركات هولندية خاصة تملك فيما بينها خمسًا وستين سفينة تتنافس فيما بينها بشكل مسعور من أجل شراء بضائع من الإيست إنديز. كان المردود في البداية وفيراً جداً، وتبين للتجار الهولنديين بسرعة أن التنافس فيما بينهم كان يدفع بالأسعار نحو الارتفاع وهو ما كان يهدد أرباحهم. في الوقت نفسه، كانت السفن الهولندية عرضة لغارات من قبل القراصنة، والسفن الحربية المعادية، والمراكب المفوضة من قبل الحكومات لمهاجمة السفن المعادية. بالإضافة إلى ذلك، لم يكن لدى الهولنديين - بعكس الأسبان والبرتغاليين - أي وجود عسكري مستقل في آسيا أو أفريقيا أو العالم الجديد. في الإيست إنديز والويست إنديز، استعمرت كل من أسبانيا والبرتغال الشعوب واحتلت البلاد، وهو ما سهّل عليهما شحن المواد الخام من تلك البلدان لغايات تجارية. اطلع التجار الهولنديون على كل تلك الامتيازات، وتعلموا الدروس المناسبة منها.

قامت مجموعة من التجار والمواطنين ورجال الكنيسة الهولنديين بتأسيس شركة شرق الهند المتحدة سنة ١٦٠٢، وكانت عبارة عن احتكار مشترك للتبادل التجاري ذي السلطات المستقلة. كانت لشركة شرق الهند المتحدة صلاحية ممارسة العمل الدبلوماسي، وتوقيع المعاهدات، وإقامة التحالفات، وتشكيل الوحدات العسكرية، وتنصيب الحكام، وشن الحروب. وكان على كل عملائها، سواء من القادة البحريين أو الحكام العامين المحليين أداء قَسَم مزدوج بالولاء للشركة، وأيضاً للحاكم العام للأقاليم المتحدة.

كان تجميع المستثمرين المؤسسين لشركة شرق الهند المتحدة مذهلاً. ففي إحدى أهم غرف التجارة في أمستردام، كان هناك أكثر من ألف مستثمر؛ واحد وثمانون من هؤلاء أسهموا في أكثر من نصف رأسمال الشركة الكلي. من بين كبار المستثمرين «الواحد والثمانين»، كان هناك ما يقرب من النصف من اللاجئين البروتستانت الذين فروا من الاضطهاد الأسباني، ونصفهم الآخر تقريباً كانوا من الهولنديين الأصليين. كانت المجموعة الأولى التي أسهمت برأسمال أكبر، تضم عائلات مصرفية وتجارية من مدينة أنتويرب مثل عائلة بارتولوتي، وكويمان، ودو سكوتس، ودو فوغيليرس. أما الهولنديون الأصليون فقد كانوا أقل ثراء، (على الأقل في البداية) ولكن كان لهم نفوذ سياسي أكبر؛ وكان من بينهم أسماء مثل غيريت بيكر ابن أحد مالكي مصانع الخمور، ورينيه بو، ابن احد تجار الحبوب، وغيريت رينست، ابن أحد مالكي مصانع الصابون. جنا هؤلاء الأشخاص ثروات طائلة من تجارة ما وراء البحار. كان هناك أيضاً ثلاثة مستثمرين رئيسيين هم في الأصل مهاجرون من ألمانيا بمن فيهم القطب المالي جان بوبين الذي كانت عائلته في سنة ١٦٣١ الأغنى بين عائلات مدينة أمستردام، وتليه عائلتا بارتولوتي و كويمان. وبالرغم من أن عشرة إلى عشرين في المئة من سكان المدن الهولندية من الكاثوليك، فقد كان جميع كبار المستثمرين في شركة شرق الهند المتحدة من البروتستانت [٢١].

مع ذلك، لم يكن التعصب الديني هو الدافع للتوسع الهولندي في مناطق ما

وراء البحار. لم تذهب سوى قلة قليلة من البعثات التبشيرية الهولندية ، إلى الإيست إنديز أو الأمريكيتين، بالمقارنة مع الأسبان والبرتغاليين من أجل «إنقاذ الوثنيين». كان هناك بالتأكيد عدد من الكالفينيين المتعصبين من بين بناة الإمبراطورية الهولندية بمن في ذلك الأميرال المتدين بيت هين والحاكم العام جان بيترسون كوين؛ إلا أن أشخاصاً مثل هين وكوين كانوا دائماً يشتكون من عدم وجود الورع الديني لدى مواطنيهم الهولنديين في آسيا. تذمر أحد رجال الدين من أن «البحارة الهولنديين لم يعرفوا عن الإنجيل أكثر مما كانوا يعرفون عن القرآن.» لم تتغذ الإمبريالية الهولندية على الكالفينية، بل على السعي وراء الربح. وكما قال رجال القبائل في غرب أفريقيا للتجار الهولنديين في بداية القرن السابع عشر: «الذهب هو ربكم.» أكد تشارلز العاشر، ملك السويد على النقطة نفسها فيما بعد: فعندما كان المندوب الهولندي يتحدث عن الحرية الدينية، سحب الملك قطعة نقدية من جيبه وقال: «هذا هو دينكم!» [٢٢].

شهدت بدايات القرن السابع عشر مدّاً توسعياً على الصعيدين التجاري والاستعماري على امتداد العالم بأسره. استولى الهولنديون سنة ١٦٠٥ على جزر التوابل الإندونيسية من البرتغاليين. نصّبت شركة الهند المتحدة الحاكم العام الأول لها في جزيرة جاوا، كما قامت بالإضافة إلى ذلك، بإنشاء مراكز تجارية في جزر تيرناتي، وتيدور، وأمبوينا، وباندا المجاورة. كما استولى الهولنديون على جاكرتا سنة ١٦١٩، وأعادوا تسميتها باتافيا، وجعلوا منها المركز الرئيس لشركتهم. في المدة نفسها، حل الهولنديون محل البرتغاليين كقوة مهيمنة على ساحل غرب أفريقيا؛ وبذلك، وضعوا يدهم على تجارة الذهب والعاج في المنطقة. وقام الهولنديون بإجراء أكثر دراماتيكية بين سنتي ١٥٩٩ و ١٦٠٥؛ ذلك أنهم أرسلوا ٧٦٨ سفينة إلى البحر الكاريبي وإلى شواطئ أمريكا الشمالية والجنوبية - التي كانت في السابق معقلاً رئيساً للأسبان - وأدى ذلك إلى قيام الهولنديين بوضع يدهم على كميات كبيرة من الملح والتبغ والجلود والسكر وسبائك الفضة.

في غضون ذلك، وبالعودة إلى أوروبا، استمر الصراع الهولندي الطويل من أجل الحصول على الاستقلال عن أسبانيا (وهو صراع استمر من سنة ١٥٦٨ إلى سنة ١٦٤٨ وكان يعرف بالثورة الهولندية أو حرب الثمانين سنة). وكان الهولنديون يحققون الانتصار تلو الانتصار. تبنى الهولنديون سلسلة من الإصلاحات العسكرية التي غذّتها الثورة الاقتصادية التي حققتها هولندا؛ وهذه الإصلاحات اقتبستها أوروبا خلال وقت قصير. كانت تدفع رواتب الوحدات العسكرية بانتظام، وأدخلت إلى الخدمة أسلحة أكثر قوة، كما تم توحيد القياسات المعيارية للقذائف والطلقات النارية. كانت هناك أيضاً ثورة في تقنيات التدريب على خوض المعارك؛ كان الجنود على سبيل المثال، يتدربون على حشو بنادقهم، ومن ثم إطلاق النار منها في وقت متزامن مسهّلين بذلك استمرار عملية رشق الطلقات بواسطة أرتال أفقية متعاقبة من جنود المشاة. أصبح التفوق الهولندي في المعارك من الوضوح بحيث إنه في معركة تارنهوت سنة ١٥٩٧، قتل ما يربو على ٢٢٥٠ من الجنود الأسبان، مقابل عدد لا يتجاوز أربعة من الجنود الهولنديين - أو، في أقصى التقديرات، لا يتجاوز عددهم المئة.

سنة ١٦٠٧، هاجمت السفن الهولندية الأسطول الأسباني في مضيق جبل طارق الذي يُعد ساحة الأسبان الخلفية وأغرقت ذلك الأسطول. وفي سنة ١٦٠٩، وقعت أسبانيا معاهدة السنوات الإثنتي عشرة مع المتمردين الهولنديين سمح بموجبها للسفن الهولندية بالدخول إلى الموانئ الأسبانية والبرتغالية والفلاندرية، وأن تجوب المياه الدولية من دون أن تخشى من هجوم قد تشنه السفن الحربية الأسبانية أو مراكب حرس الشواطئ الأسبانية. انخفضت بوالص التأمين على البضائع والسفن الهولندية بنسبة كبيرة إثر توقيع هذه المعاهدة مباشرة؛ كما ازدادت الأرباح الهولندية بمعدلات قياسية، ووصلت السيطرة الهولندية على التجارة مع بلدان بحر البلطيق والبحر الأبيض المتوسط وشمال أوروبا إلى ذروتها. عندما انتهت مدة المعاهدة لم تقم أسبانيا بتجديد بنودها. استؤنفت الحرب سنة ١٦٢١، وأعادت

أسبانيا فرض الحظر على السفن الهولندية من جديد. في السنة نفسها، تم إنشاء شركة شرق الهند المتحدة الهولندية بشكل رسمي، انطلق بعدها المد الاستعماري الهولندي باتجاه العالم الجديد.

في ثلاثينيات القرن السابع عشر، انتزعت هولندا من البرتغال كل تجارتها في مجال السكر تقريباً بين البرازيل وشمال أوروبا. وفي سنة ١٦٣٤، احتلت هولندا كركاس التي كانت تحت السيطرة الأسبانية، وأسست لنفسها قاعدة دائمة في منطقة الكاريبي. بحلول سنة ١٦٤٨، أصبح العلم الهولندي يخفق فوق أروبا، وبونير، وسانت مارتن، وبقية الجزر مجتمعة، والتي تعرف اليوم باسم جزر الأنتيل الهولندي. في غضون ذلك - وبالعودة إلى أوروبا - أعلن هنري هدسون، وهو إنجليزي استخدمه الهولنديون وزودوه بالمؤن، وَضَعَ يده على أغلب مساحة ولاية نيويورك لصالح مستخدميه الهولنديين. قام الهولنديون في منتصف القرن السابع عشر، انطلاقاً من قواعد في منطقة أمستردام الجديدة (التي تدعى اليوم مانهاتن)، ومنطقة فورت أورانج (التي تسمى اليوم ألباني) بالسيطرة على تجارة الفرو المزدهرة في أمريكا الشمالية [٢٣].

تأسست شركة الهند الغربية المتحدة الهولندية كمثيلتها شركة الهند الشرقية المتحدة بشكل رئيس من قبل المهاجرين الذين فروا إلى الجمهورية الهولندية نظراً للتسامح الديني النسبي الذي تتمتع به. كان من بين هؤلاء المؤسسين أيضاً لاجئين بروتستانت ميسورين - في واقع الأمر، كانت شركة الهند الغربية تمارس الكثير من العدوانية ذات المنشأ الكالفيني، والتي تجاوزت بكثير، العدوانية في مثيلتها الشرقية. من ناحية أخرى، وبينما أدى اليهود دوراً صغيراً في شركة الهند الشرقية، فقد كان لهم وجود وأنشطة مؤثرة في شركة الهند الغربية.

ونظراً لطلاقتهم في اللغتين الهولندية والأيبيرية، بالإضافة إلى خبراتهم الطويلة في الاتجار بالسكر وبعض المواد الخام الاستوائية الأخرى، فإن اليهود السفارديم في

هولندا كانوا مناسبين للقيام بمهمة المستعمرين الهولنديين في الويست إنديز. وقد مثّلَ اليهود الهولنديون بحلول سنة ١٦٤٤ ثلث المواطنين البيض تقريباً في البرازيل الخاضعة لسلطة الأراضي المنخفضة.

ساعد اليهود في استعمار غويانا، وبربادوس، والمارتينيك، وجمايكا بالإضافة إلى جزر أصغر مثل نيفيس، وغرانادا، وتوبوغو. وكانت أكبر مستعمرة يهودية في العالم الجديد والأكثر أهمية، هي كركاس، وتليها جماعة اليهود السفارديم المكونة من خمسمئة فرد في سورينام، والتي كانت تملك بحلول سنة ١٦٩٤، أربعين مصنعاً للسكر وتسعة آلاف من العبيد [٢٤].

بحلول منتصف القرن السابع عشر، كانت الجمهورية الهولندية «أعظم أمة تجارية في العالم من دون منازع، وكانت تحت سيطرتها محطات تجارية ومصانع محصنة ومحمية بشكل جيد منتشرة من آرش آنجيل إلى ريسيف، ومن أمستردام الجديدة إلى ناغازاكي.» كانت كميات غير محدودة من البضائع الفاخرة تصب في هولندا وتمر عبرها. في السابع والعشرين من شهر حزيران، يونيو، سنة ١٦٣٤، أفرغت هذه الكميات الهائلة من المواد التالية في ميناء أمستردام:

> **٣٢٦٧٣٣،٥ باوند من توابل مالاقا، من وحدات الوزن المتعارف عليها في أمستردام، و٢٩٢٦٢٣ ليبرة من الملح الصخري، و ١٤١٢٧٨ ليبرة من النيلة، و٤٨٣٠٨٢ ليبرة من الخشب، و ٢١٩٠٢٧ قطعة من ملابس المينغيين الزرقاء، و ٥٢ صندوقًا من البورسلين الكوري والياباني، و ٧٥ مزهرية كبيرة وقدور فخارية تحتوي على أنواع من المربى المحفوظة، أغلبها كان من الزنجبيل المخلوط بالتوابل، و٦٦٠ ليبرة من النحاس الياباني، و ٢٤١ قطعة من الأعمال الفنية الزيتية اليابانية، و ٣٩٨٩ قطعة من الألماس الخام من الحجم الكبير، و ٩٣ صندوقًا من اللؤلؤ والياقوت، و ٦٠٣ من البالات المليئة بأثواب فارسية من الحرير، و ١١٥٥ ليبرة من الحرير الصيني الخام، و ١٩٩٨٠٠ ليبرة من السكر غير المكرر [٢٥].**

العصر الهولندي الذهبي

عرف الهولنديون منذ مدة طويلة بأنهم شعب اقتصادي. اتهم أوين فيلثام الهولنديين «بالاحتفاظ حتى بقشور البيض.» من جهته، عبر السفير البريطاني إلى الهيغ بين سنتي ١٦٦٨ و ١٦٧٠، السير ويليام تمبل الذي سبق له أن أبدى إعجابه بالأقاليم المتحدة عن الضيق من كون الهولنديين أصبحوا أصحاب ثروات بسبب البخل:

> لم يسبق لأي أمة في الدنيا أن تاجرت بهذه الكميات الكبيرة من البضائع، وأنفقت هذا المقدار الضئيل: فهم سادة تجار التوابل الهندية، والحرير الفارسي العظام، ومع ذلك فهم يلبسون الصوف العادي ويأكلون من الأسماك التي يصيدونها، ومن الخضراوات ذات الجذور. الأدهى من ذلك، أنهم يبيعون أفضل أرديتهم وألبستهم لفرنسا، ويشترون لأنفسهم ثياباً خشنة من إنجلترا. باختصار، إنهم يعرضون أهم أشكال الترف لكنهم لا يعيشونه، ويتاجرون بكل المتع الدنيوية من دون أن يتذوقوها.

لكن بينما كان بعضهم يرتدي «الصوف العادي»،ويأكل الخضراوات ذات «الجذور»، فإن آخرين من بينهم لم يكونوا يفعلون ذلك. بيّنَ سايمون سكاما في كتابه الموسوم The Embarrassment of Riches أن الكثيرين من بين الهولنديين بدءاً من الذين تجري في عروقهم دماء ملكية وصولاً إلى الناس العاديين، لم تكن لديهم أي مشكلة في إيجاد شكل من أشكال التوازن بين مبادئ الكالفينية من جهة، وبين حياة الترف من جهة أخرى - والمتمثلة في الولائم الضخمة، والاحتفالات الباهظة التكاليف، والاستهلاك الباذخ.

عرفت الجمهورية الهولندية في كافة أنحاء أوروبا، إبان القرن السابع عشر الذي كان يُعد عصرها الذهبي، كالولايات المتحدة في معظم مراحل تاريخها، بأنها أرض الفرص: قدس جديدة تطفو على بحيرة من الحليب والعسل. لكن كان هناك الكثير من الفقر المدقع و اللا مساواة أيضاً: كان من بين الآلاف المؤلفة الذين تدفقوا

على الجمهورية بين سنتي ١٥٠٠ و ١٧٠٠ ليس فقط المستثمرون الماليون وأقطاب الثروات، بل أطفال مشردون، وبائعات هوى، وبحارة لا يملكون شروى نقير من النرويج والسويد. مع هذا كله، كانت الجمهورية الهولندية أغنى بلدان أوروبا قاطبة؛ حتى العمال غير المهرة كان مستوى معيشتهم أفضل من معظم نظرائهم في العالم بأسره [٢٦].

وكما أن الأمريكيين اليوم يعدون الأكثر شراهة في العالم، كان الهولنديون مشهورين بأنهم يحشون أجسادهم بالطعام. أعرب العالم الطبيعي الإنجليزي جون ري من القرن السابع عشر عن اشمئزازه من منظر النساء والرجال الهولنديين، الذين كانوا في معظمهم «من ذوي العظام الغليظة والأجسام البدينة، والذين لا يكادون يتوقفون عن التهام الطعام.» ولم تكن هذه الشراهة في الأكل مقصورة على الأغنياء. فقد كان الأرستقراطيون والناس العاديون يتناولون وجبات فطور متشابهة، درجت العادة أن تتضمن الخبز والزبدة والجبن والسمك والمعجنات والحليب الكامل الدسم والبيرة – وكانت هذه الأخيرة «أكثر أنواع المشروبات المترافقة مع الفطور شيوعاً بالنسبة للكبار والصغار على حد سواء.

كانت وجبتا الغداء والعشاء وفيرة وشهية أيضاً. تظهر إحدى فواتير الطعام في الرابع والعشرين من شهر نيسان، أبريل، سنة ١٦٦٤ أن اثني عشر بروفسوراً من مقاطعة غرونينجين طلبوا قائمة الطعام الآتية للعشاء: ديك رومي وأرنب بري مطبوخ في قدر فخاري وخنزير صغير وخروف ولحم عجل مشوي على السيخ وسمك وخبز وزبدة وخردل وجبن وليمون حامض واثنتا عشرة قارورة من الخمر.» وفي سنة ١٧٠٣، قيل إن سبعة على الأكثر من رجال الكنيسة من آرنيم، استهلكوا في جلسة طعام واحدة «أربع عشرة ليبرة من لحم البقر، وثماني ليبرات من لحم العجل وستة من الطيور والملفوف المحشي بالأرز واللحم والتفاح والدراق والخبز والبسكويت المملح والمكسرات المشكلة واثنتين وعشرين زجاجة من النبيذ الأحمر واثنتي عشرة زجاجة من النبيذ الأبيض والقهوة.» حتى في البيوت الفقيرة، كانت الوجبات لا

تخلو من حساء الخضراوات واللحم المطبوخ والخبز والزبدة وأحياناً لحم الطيور والفواكه الطازجة والنبيذ الأحمر للمرضى.

كان الهولنديون يأكلون أكثر من المعتاد في المناسبات الخاصة. فبالإضافة إلى العطلات الرئيسة مثل عيد الميلاد وعيد القديس مارتن وغيرهما (وكان يتطلب في مثل هذه المناسبات التهام الكعك المحمص والشطائر المحلاة والنقانق والمعجنات المحشوة بلحم الخنزير)، كان الهولنديون يولمون في مناسبات الولادة والمعمودية والتقميط والزواج والوفيات وافتتاح المدارس وحفلات اليانصيب والتدرب على مهن جديدة وتركيب آلات الأرغن الموسيقية ورسو السفن في الموانئ وحتى في «الولائم الإرتكاسية» حيث يتبادل السيد والسيدة الأدوار مع خدمهما. يمكن أن يصل عدد الصحون التي تقدم في مثل تلك الولائم إلى مئة صحن أو أكثر. تم تشييع أحد أصحاب النزل غير المعروفين، وهو ما أطلق عليه سايمون سكاما وصف «التشييع الاستثنائي» حيث استهلك أبناء مدينته في تلك المناسبة

٢٠ برميلاً من النبيذ الفرنسي والرايني

٧٠ برميلاً مملوءًا إلى منتصفه من البيرة

١١٠٠ باوند من اللحم المسلوق

٥٥٠ باوندًا من لحم الخاصرة

٢٨ صدرًا من لحم العجل

١٢ خروفًا كاملاً

١٨ غزالاً

٢٠٠ باوند من اللحم المفروم

وكانت هذه الكميات تغطى كالعادة بالخبز والزبدة والجبن.

إلا أن الطعام الذي كان يلتهم بكميات كبيرة، وبكثير من النهم، لم يثر أي صعوبات دينية ذات شأن. فالخبز تم تقسيمه في "العشاء الأخير"؛ «وحتى بالنسبة لأي واعظ متحمس، لم يكن الكعك المملح يستثير أي إحساس بالخطيئة.» المشكلة كانت تكمن في أن الهولنديين كانوا يكثرون من الشراب والتدخين إلى درجة كبيرة. احتج أحد رجال الدين على ذلك بالقول: «لا يعدم الرجال إيجاد الأعذار كي يبدؤوا بمعاقرة الخمرة ... عند سماعهم صوت الجرس، أو رؤيتهم لطاحونة تدور. ... الشيطان نفسه تحول إلى مصنّعٍ للخمور.» قيل إنه في سنة ١٦٠٣، كان يوجد ٥١٨ مصنعاً للبيرة في أمستردام وحدها. وفي المدة نفسها، قيل إن ١٢٠٠٠ ليتراً من البيرة تستهلك يومياً في مدينة هارلم؛ وكان أكثر من ثلثي هذه الكمية يتم استهلاكها منزلياً. في الوقت نفسه، كان التدخين وحتى مضغ التبغ يشكلان ما يمكن أن يطلق عليه وصف الإدمان على الصعيد الوطني عند الجنسين، وبين أفراد جميع الطبقات الاجتماعية. ذكر سكاما أن «الجمهورية الهولندية تفوح منها رائحة التبغ.» كان الزوار الأجانب ينفرون تحديداً من أسنان النساء الهولنديات المغلفة بسواد القطران. وكان السكان المحليون يعلقون بالقول: إن «من المستحيل أن ترى هولندياً من دون غليون في فمه»[٢٧].

تسببت مثل هذه الخطايا والإفراط في إحباط عميق في نفوس الكالفينيين المتعصبين. حاول عمدة مدينة أمستردام سنة ١٦٥٥، وكان من الأتقياء، تمرير قانون يحظر بموجبه إقامة ولائم أعراس فيها الكثير من البذخ. في موقع آخر، وضعت مدينة ديلفت حظراً على الظهور العلني للرجال الذين يرتدون ملابس وحليّ مبتذلة. كما حاول عدد من رجال الدين منع استهلاك الكحول في أيام السبت.

إلا أن هذه الإجراءات فشلت في نهاية المطاف فشلاً ذريعاً. لم تكن هذه الإجراءات مرفوضة شعبياً وحسب، (كانت محاولة منع استهلاك الكعك المحلى في عيد سانت نيكولاس قد أدت إلى ثورة عارمة بين الأطفال الذين لم تتجاوز أعمارهم الحادية عشرة.) بل وقفت القوى الرأسمالية بشراسة في وجه مثل تلك المحاولات.

فقد كانت البيرة والتبغ اثنتين من أهم المنتجات التجارية في الجمهورية الهولندية. وكان ما يقرب من نصف القوة العاملة في مدينة غودا تعمل في تصنيع الغليون. وحتى شركة الهند الغربية التي اشتهرت بخطها الكالفيني المتشدد، جنت أرباحاً طائلة من تجارتها في التبغ الذي كانت تأتي به من المستعمرات. انتصرت المصالح الاقتصادية بسهولة على جهود الحظر التي قادتها الكنيسة. ففي روتردام على سبيل المثال، استطاع منتجو الخمور في المدينة بسرعة قياسية سحب القانون الذي كان يحظر شرب الخمور أيام الآحاد. الكنيسة نفسها لم تكن بمعزل عن المشاركة في تجارة «الخطايا». فقد كان من الشائع عند رجال الكنيسة المحليين أن يقوم أحدهم باختلاس لحظات يمارس فيها التدخين بين القداس والآخر؛ وكان أحد كبار أقطاب صناعة التبغ في مدينة أميرسفورت واسمه برانت فان سليختينهورست من كبار المنتسبين إلى الكنيسة الإصلاحية البروتستانتية (٢٨).

بحلول منتصف القرن السابع عشر، اشتهرت الجمهورية الهولندية في كافة أنحاء أوروبا بأنها موغلة في ليبراليتها على الأصعدة الاجتماعية والأخلاقية والاقتصادية والفكرية. كان زوارها الأجانب يشعرون بالصدمة من عدم الاحترام الذي يبديه كل من الخدم والزوجات والناس العاديين للسادة والأزواج والنبلاء. تحدث الألماني هنريخ بينثيم ساخراً عند زيارته للجمهورية الهولندية في السنوات العشر الأواخر من القرن السابع عشر قائلاً، إن الخادمات يلبسن ويتصرفن تماماً مثل سيداتهن لدرجة أنه لم يكن يستطيع التمييز بينهن. لاحظ أيضاً أنه وبينما كان الأزواج الألمان يذهبون إلى الكنيسة معاً، كانت زوجاتهم يمشين إلى الخلف منهم ويهتممن بالأولاد؛ أما في هولندا فقد كان العكس هو السائد؛ قال: «هنا الدجاجة تصيح، بينما يكتفي الديك بالقوقأة.» كانت النساء في الجمهورية الهولندية بشكل عام – شابات وعجائز، ومن كافة الطبقات الاجتماعية – يشتهرن باستقلاليتهن، «وبالحرية في الذهاب أنى شئن، من دون أن يصطحبهن أو يرافقهن أحد إلى العمل أو ممارسة أي أعمال تجارية أو الخوض في أي أحاديث شأنهن في ذلك شأن الرجال.»

obeikandl.com

الأسوأ من هذا وذاك، أنه لم تكن توجد حدود أو توضع ضوابط على من يمكن أن يصبح غنياً في الجمهورية الهولندية - أو على الأقل، هذا ما لاحظه معاصروهم الأوروبيون الذين اعتادوا على أنماط هرميات اجتماعية أكثر تشدداً. كان التجار حديثو النعمة وأبناء صانعي الجبن يعيشون في قصور فخمة «ذات أعمدة من الرخام والمرمر، وأرضية مطلية بماء الذهب.» كانوا يرتدون ملابس فاخرة ويزينون زوجاتهم بملابس مصنوعة من الحرير الأسباني الصقيل، والزمرد البرازيلي، والياقوت الهندي. حتى أصحاب المحلات التجارية والإسكافيون من ذوي الأصول المتواضعة كانوا يرتدون الكتان الغالي الثمن والمخمل والدمقس. تمتم أحد النقاد الساخطين قائلاً: «السيد "أيٌّ كان" يظن أن من حقه ارتداء ما يشاء طالما كان قادراً على دفع ثمنه.» وتابع القول: «هل يمكنكم تحمل رؤية خياط يملك غرفة أو ردهة معلق على جدرانها الجلد الذهبي اللون أو السجاد؟ أو تاجر أقمشة حريرية أو حرفي من هنا أو هناك يزين منزله كما لو كان سيداً نبيلاً أو عمدة المدينة؟»

كان التسامح الديني والرواتب العالية في الجمهورية عاملا جذب للأفراد المهرة والموهوبين من كل أنحاء أوروبا مثل الألمان والإنجليز والفرنسيين والاسكتلنديين وحتى الأتراك والأرمن. حقق الهوغونيون الذين وصلوا إلى الجمهورية بعد إلغاء مرسوم نانت سنة ١٦٨٥ في فرنسا النجاح بشكل لافت في مجالات صناعة الحرير والملابس والقبعات والشعر المستعار والساعات الهولندية. أصبحت مدن هولندا الكبرى وجامعاتها أكثر الأماكن عالمية في أوروبا. بلغت نسبة الطلبة الإنجليز في جامعة ليدن سنة ١٧٠٠ ثلث عدد الطلبة الإجمالي؛ كما تدفق الآلاف من الباحثين الإنجليز والإسكتلنديين إلى غرونينغين وأتريخت أيضاً. بحلول سنة ١٦٨٥، أصبح المهاجرون والمنحدرون من أصول المهاجرين أغلبية في هولندا [٢٩].

شهدت الجمهورية الهولندية في القرن السابع عشر - مثلها في ذلك مثل الصين في العصر الذهبي للتانغيين - مداً هائلاً من الإبداع الثقافي والفني والفكري. وكان الرسامون الهولنديون في ذلك العصر - من أمثال رمبراندت، وفيرمير وفرانز هالز

وجان ستين وجاكوب فان رويسديل - من أعظم الفنانين وأشهرهم على مر العصور. قام سادة الفن الهولنديون الذين تجنبوا التعاطي مع رموز القداسة التي تناولها الفن التقليدي بممارسة الرسم بأسلوب واقعي فيه الكثير من التكثيف مسلطين الكثير من الضوء بشكل غير مسبوق على موضوعات محلية وعلى قضايا الطبقة الوسطى التي كان من غير المسموح تداولها في لوحات الرسم العظيمة التقليدية. (اختار رمبراندت أن يعيش في الحي اليهودي في أمستردام.) قدم هولنديو ذلك العصر إنجازات لافتة في مجالات فكرية وثقافية أخرى: هوغو دو غروت، الموسوعي والإنساني النزعة الذي يعرف اليوم باسم غروتيوس، كان أول من وضع أسس القانون الدولي الحديث في القرن السابع عشر، بينما كان ما يزال في العشرينيات من عمره.

وأخيراً، بعضٌ من ألمع مفكري عصر التنوير الذين استهوتهم الحرية الفكرية في الجمهورية، كتبوا أو عاشوا في هولندا. وكان من بين هؤلاء رينيه ديكارت، وباروخ سبينوزا، وجون لوك، «وهم المتنورون الثلاثة العظام في فكر القرن السابع عشر.» كان ديكارت سيداً فرنسياً كاثوليكياً وجد في هدوء هولندا راحة البال التي كان ينشدها، وكتب فيها أكثر أعماله شهرة. (كتب أيضاً عن أمستردام المهووسة بعالم التجارة: «لا يعيش في هذه المدينة العظيمة، لو نحيت نفسي جانباً، سوى الذين يعملون في مجال التجارة، فالجميع هنا غارق في البحث عن مصلحته لدرجة أنه بإمكاني قضاء بقية عمري في هذا المكان من دون أن ألتقي بإنسان.») كان سبينوزا فيلسوفاً يهودياً هاجرت عائلته إلى هولندا في العشرينيات من القرن السابع عشر؛ وقد أدت أفكاره الحديثة المتطرفة حول العقل ومفهوم الفردية إلى طرده من محيط جماعته من اليهود السفارديم. أما جون لوك فقد كان إنجليزياً طرده الملك جيمس الثاني، وكانت أعظم كتاباته - حول مفهوميّ الحكومة والتسامح - قد تأثرت بسنوات المنفى التي قضاها في هولندا. كما استقرت شخصيات لامعة مثل الإيطالي غريغوريو ليتي، والفرنسي بيير بيل في الجمهورية الهولندية أيضاً، وبذلك أصبحت هولندا «ملاذاً للفلاسفة» [٣٠].

هل كانت الجمهورية الهولندية قوة مطلقة؟

يمكن القول: إن الجمهورية الهولندية في ذروة تفوقها البحري والاقتصادي غير المسبوق بين سنتي ١٦٢٥ و١٦٧٥ تقريباً، كانت دولة مسيطرة عالمياً. الاعتراض الواضح على مثل هذا القول يكمن في أن الجيش الهولندي لم يكن الأكبر في أوروبا – بالرغم من أنه كان من بين أكبر الجيوش وأفضلها تجهيزاً وأكثرها حرفية وانتظاماً. حتى في سنوات انحدارها في القرن السابع عشر، كانت أسبانيا تملك جيشاً أكبر عدداً، وكان من المشكوك فيه إلى درجة كبيرة أن يكون باستطاعة الأراضي المنخفضة غزو مناطق الهابسبورغيين وفتحها. هل يمكن القول إن الجمهورية الهولندية كانت حقاً دولة كبرى؟

التركيز على حجم الجيش الهولندي يؤدي إلى عدم فهم الأسباب التي ساعدت الجمهورية الهولندية في الانتصار على منافساتها من الدول والإمبراطوريات الأخرى. لم يكن في نية الهولنديين أبداً غزو القارة الأوروبية. وبينما أرهقت كل من أسبانيا وفرنسا وإنجلترا نفسها في حروب عدوانية ضد بعضها بعضاً، كانت الجمهورية الهولندية تبني لنفسها جيشاً قوياً يكفي لانتزاع الاستقلال من الهابسبورغيين، والدفاع عن حدودها – كما فعلت سنة ١٦٧٢ عندما ألحقت الهزيمة، لدهشة الأوروبيين، وفي وقت متزامن بالغزاة الفرنسيين والإنجليز وردتهم على أعقابهم. والأهم من كل ما تقدم، مثلها في ذلك مثل البندقية في العصور الوسطى، كانت الإمبراطورية الهولندية إمبراطورية محمولة على سطح مياه المحيط، يدفعها التعطش إلى التوسع التجاري، وليس التوسع في مساحة الأراضي [٣١].

بحلول القرن السابع عشر، أضحت القوة البحرية الطريق الملكية المؤدية إلى السيطرة على العالم، وقد وضعت الجمهورية الهولندية يدها على البحار والمحيطات. بلغت السيطرة البحرية الهولندية مدى مثيراً للدهشة. ففي معركة الداونز، سنة ١٦٣٩، ألحقت السفن الحربية الهولندية هزيمة مذلة للبحرية الأسبانية الهائلة

الحجم، حيث تم تدمير ما يقرب من مئة من سفن الأسطول الحربي الأسباني، بالإضافة إلى قتل ما يقرب من عشرين ألف جندي أسباني، وهو ما تسبب في «ارتقاء سمعة هولندا البحرية إلى ذرى لم تبلغها من قبل.» سنة ١٦٦٧، لقن الهولنديون الإنجليز درساً في الهزيمة ربما كان الأسوأ في التاريخ البريطاني، ومما زاد الطين بلة، أن الهولنديين سحبوا السفينة الحربية الإنجليزية "رويال تشارلز" وهي سفينة القيادة في الأسطول الإنجليزي إلى الموانئ الهولندية. على الصعيد التجاري، كانت سيطرة الهولنديين البحرية أكثر وضوحاً. بحسب أحد التقديرات، من أصل ما يقرب من عشرين ألف سفينة تجارية في العالم تحمل مواد تجارية، في منتصف القرن السابع عشر، كانت هناك ما بين خمسة عشر ألف إلى ستة عشر ألف سفينة منها للهولنديين. وكان الهولنديون ، يدفعون بحلول سنة ١٦٧٠، رسوماً على حمولات سفنهم أكثر مما تدفعه كل من إنجلترا وفرنسا والبرتغال وأسبانيا وبروسيا مجتمعة.

كان الأسطول الهولندي في أوج قوته من حيث الحجم، يوازي تقريباً القوات البحرية لكل من بريطانيا وفرنسا سوية - وكان ذلك أمراً مدهشاً، نظراً إلى أن فرنسا كانت أكبر من الجمهورية الهولندية من حيث عدد السكان بما يزيد عن عشر أو عشرين مرة [٣٢].

تبين للهولنديين قبل غيرهم أن هناك طريقاً جديدة لتحقيق السيطرة على العالم مع بزوغ فجر العصر الحديث. فجميع القوى المطلقة السابقة في التاريخ بدأت باحتلال جيرانها أولاً، متوسعة باتجاه الخارج تساعدها في ذلك الجيوش الغازية التي تزداد حجماً من خلال ضمها لشعوب أكثر فأكثر، وكذلك من خلال إبداء التسامح الإستراتيجي الذي شجع الشعوب المستعمرة على الإسهام بقواها ومواهبها في سبيل دعم سلطة تلك الجيوش ونفوذها.

لكن التسامح الهولندي أدى دوراً مغايراً. فقد شهدت الحقبة الممتدة بين ١٤٩٢

و١٧١٥ أعظم هجرة قام بها أصحاب المهارات في التاريخ، ويعود ذلك بدرجة كبيرة إلى الاضطهاد الديني الوحشي الذي ساد أوروبا في تلك الحقبة [٣٣]. استخدم الهولنديون التسامح من أجل اجتذاب الفارين والمضطهدين من أصحاب المواهب المختلفة من كافة أنحاء أوروبا، وهو ما قامت به الولايات المتحدة نفسها بعد قرنين من الزمن. تبين أن تلك كانت إستراتيجية رابحة تم من خلالها اجتذاب المجموعات الأكثر ديناميكية من الناحية الاقتصادية -بالإضافة إلى نصب شبكات تجارية بالغة الأهمية، وتكنولوجيا صناعية بالغة الدقة، وكميات هائلة من رؤوس الأموال- إلى هولندا الصغيرة الحجم؛ محققة بذلك فورة اقتصادية ساعدت في امتداد الجمهورية الهولندية إلى حدود أبعد بكثير من منافسيها الأوروبيين في الثروة. وقد استخدم الهولنديون هذه الثروة كي يمدوا سيطرتهم باتجاه العالمية.

أدى التقدم التكنولوجي وبروز الرأسمالية إلى ازدياد عدد المناطق التي يمكن أن يتم وضع اليد عليها في أصقاع شتى من العالم، كما أسهم في تغيير الأهداف التي تطمح القوة إلى تحقيقها. تضاءلت إلى حد كبير أهمية التوسع الجغرافي على حساب البلدان المجاورة. فالجوائز الجديدة الأكثر دلالة وربحية هي الذهب والفضة التي يمكن الحصول عليهما من الأمريكيتين، وتجارة التوابل من الإنديز، والسكر من منطقة الكاريبي، بالإضافة إلى أنواع أخرى من «التجارة المربحة» - في أسواق القهوة والشاي والكاكاو وصناعة النسيج والجواهر ومواد الترف الأخرى - وذلك من منطقة البلطيق مروراً بمنطقة البحر الأبيض المتوسط وصولاً إلى أفريقيا. وكان الهولنديون هم الذين مهّدوا الطريق للفاتحين المستقبليين - من أمثال نابليون وهتلر- لتجديد أحلامهم المنحرفة بإخضاع أوروبا عسكرياً، مع ما رافق تلك الأحلام من دمار، ودمار ذاتي هائل.

لم تتمثل إستراتيجية السيطرة على العالم الحديثة بالفتوحات بهذا المعنى، بل بالرأسمالية التي تدعمها القوة العسكرية. وبالرغم من أن الهولنديين كانت لهم مواقع استعمارية مهمة في إندونيسيا ومنطقة الكاريبي ومناطق أخرى، فإن معظم

مناطق "الإمبراطورية" الهولندية كانت بالأساس عبارة عن شبكة من نقاط استناد تجارية تدار من قبل شركتيّ الهند الشرقية والغربية شبه الخاصة؛ وكانت السفن الحربية توفر الحماية لاحتكار هاتين الشركتين لأكثر طرق وممرات التجارة ازدهاراً في العالم. ومع الأخذ بعين الاعتبار «تفوقها الإنتاجي والتجاري والمالي» الواضح، بالإضافة إلى شهرتها التكنولوجية وقوتها البحرية الطاغية، فإنه لم يكن مستغرباً أن يخلص إيمانويل وولرستين إلى الاستنتاج بأن الجمهورية الهولندية في القرن السابع عشر تبوأت «موقعاً استثنائياً» في مجال «السيطرة» العالمية [٣٤].

«الفتح» الهولندي لإنجلترا

غزا الأسطول الهولندي الهائل الحجم إنجلترا سنة ١٦٨٨، واحتلت القوات الهولندية لندن، ونصّب نائب الرئيس الهولندي وليام الثالث من أورانج نفسه ملكاً على بريطانيا التي تقاسم حكمها مع زوجته ماري. وكان يبدو أن التفوق الهولندي قد وصل ذروته، وأن التوسع العسكري والتجاري لهولندا لا يمكن إيقافه. في الواقع، كان اعتلاء وليام العرش إيذاناً بانتقال عباءة السيطرة العالمية من كتف هولندا إلى كتف بريطانيا [٣٥].

كان البرلمان البريطاني هو الذي خطط لهذه الثورة المجيدة، أو «الثورة التي لم تهرق فيها الدماء» سنة ١٦٨٨. قبل ذلك بعشر سنوات، كان وليام، الهولندي الطموح قد تزوج من ابنة عمه ماري ستيوارت، ابنة الملك جيمس الثاني، ووريثة العرش الإنجليزي. بعكس وليام وماري اللذان كانا من البروتستانت، كان جيمس الثاني كاثوليكياً وهو ما جعله غير محبوب عند رعاياه الإنجليز.

كانت محاولة وليام الاستيلاء على العرش الإنجليزي من عمه (ووالد زوجته) محفوفة بالمخاطر بالرغم من حصوله على موافقة البرلمان البريطاني على ذلك. ونظراً لأن جيمس الثاني كان قد عقد تحالفاً مع لويس الرابع عشر، الملك الفرنسي، فقد كان من المهم أن يقوم وليام بتحريك قواته ونقلها عبر القنال الإنجليزي بسرعة.

كانت القوة البحرية الهولندية التي رست على شواطئ إنجلترا سنة ١٦٨٨ - والتي وصلت على متن أسطول قوامه خمسمئة سفينة حربية - مجهزة وممولة جزئياً من قبل مجموعة صغيرة من اليهود الهولنديين. بعد تبوئه عرش إنجلترا، قام وليام على الفور باستقدام خبرائه الماليين من اليهود السفارديم لمتابعة تمويل قواته التي تضم الآن الجيش الإنجليزي والبحرية الإنجليزية أيضاً. وتبع هؤلاء الخبراء بعد مدة قصيرة عمال النسيج المهرة والعلماء وفنانو الصور الهولنديون والرسامون والنحاتون. وهكذا بدأت موجة كبيرة من رأس المال البشري والمالي بالتدفق من هولندا إلى إنجلترا [٣٦].

وهكذا، فقد كان من المفارقة أن تستفيد إنجلترا بشكل هائل من الاندماج بين القوتين الهولندية والإنجليزية. فقد قامت الجمهورية الهولندية بتصدير تسامحها وخبرائها الماليين من المستثمرين وكل «نموذجها التجاري» إلى إنجلترا التي حلت بدورها محل الجمهورية الهولندية كموطن للحرية في أوروبا، وأرض للفرص بالنسبة للمهاجرين والأقليات الدينية. لم يمض وقت طويل قبل أن تحل إنجلترا محل الجمهورية الهولندية بوصفها قوة بحرية عالمية عظمى، تتربع فوق عرش إمبراطورية استعمارية وتجارية عالمية لم يسبق لعظمتها مثيل في التاريخ؛ وبذلك، ورثت إنجلترا عن هولندا مشكلة استعصى على هذه الأخيرة حلها.

كان التسامح بالنسبة إلى الهولنديين سياسة داخلية بالدرجة الأولى؛ ذلك أن التسامح الديني اللافت الذي طال الأراضي المنخفضة داخل حدودها لم يترجم إلى تسامح عرقي أو عنصري في نقاط تواجدها الاستعماري فيما وراء البحار. فقد عامل الهولنديون المستعمرون شعوب مستعمراتهم من سورينام إلى جاوا وصولاً إلى أفريقيا بطريقة دونية من الناحيتين العنصرية والثقافية، وقد مارسوا ضدهم كل ما يمارسه المستعمرون عادة من رق وتمييز عنصري وتدمير ثقافي. وهكذا فقد كان هناك تناقض بين التسامح الهولندي داخل الوطن، والتعصب الذي مورس في المستعمرات في الخارج، وهو تناقض سوف يبين بشكل أوضح في ممارسات الإنجليز.

لو قمنا بتوصيف ذلك بألطف العبارات، لقلنا إن الهولنديين لم ينجحوا أبداً في تحويل الإندونيسيين أو السيلانيين إلى رعايا موالين للإمبراطورية الهولندية العظمى. لم يسعَ الهولنديون أبداً في واقع الأمر، إلى إقامة إمبراطورية من هذا النوع. لقد تُرِكَ لإنجلترا أمر المواءمة بين أضداد تتمثل في محاولة الجمع بين مبادئ التنوير، والمركزية العرقية الأوروبية، والرؤية الرومانية لبناء الإمبراطورية وتمثل ذلك في تكوين عالم من الرعايا البريطانيين الذين ملؤوا صفوف الجيش البريطاني، وأداروا أراضي المستعمرات البريطانية، وحاكوا السلوك البريطاني، واندفعوا بشكل أو بآخر، لتعزيز المصالح الإمبريالية البريطانية.